مقاربة لاعترافاته قدمها في منتدى شومان بعمان:

غرايبة: السيرة الجوّانيّة لمؤنس الرزاز مغلفة بالكوميديا السوداء والتراجيديا الشفافة

عمان ـ «القدس العربي»
ـ من يحيى القيسي:

قال الروائي الأردني هاشم غرايبة في محاضرته التي قدمها في منتدى شومان إن الروائي الراحل مؤنس الرزاز قد «عكف خلال العامين الأخيرين من عمره على كتابة اعترافاته فجاءت مثل حياته: مضطربة صاخبة حارة صادقة ومؤثرة، وكان يحب أن يسميها سيرة جوانية، بمعنى اعترافات عن الروح اضطراباتها والنفس وأهوائها والخيال وشطحاته».

وتابع قائلا في مقاربته لمخطوط الاعترافات الجوانية للرزاز التي تنتظر النشر قريبا «إن من يجوس أروقة مؤلفات مؤنس العديدة يكتشف اعترافات جسورة مبكرة تبرر عبوره برزخ الحيرة باتجاه الحقيقة السوداء ازرا بطلة مخطوطه الأخير ..المرأة الكاملة / المعشوقة الأخيرة للراوي البطل/انها تمثل الراحة التامة الأبدية (في أحضان ازرا آلهة الموت عند عموم عشائر الرزايزة) من مخطوط السيرة الجوانية/وهكذا تبدأ الرحلة من عند المرأة الأولى/ الأم/ مـــــورا ب/ زهرة /هبـــــة /هيام/سهام/سميرة/مئات الأسماء التي تختصرها ازرا في عناق نهائي وأبدي مع الراوي وهو يهتف إزرا يا خيار الحتم تعالي حرريني.

وأضاف: «كنت وأنا أتابع رصد مؤنس لاعترافات شخوصه أو اعترافاته عبر رواياته العديدة اشعر كالمتفرج على دمى العرائس.. إلا أنني اردد النظر بين حركات الدمى حينا والخيوط الدقيقة التي تمسك بها يد الواقف وراء الستار حينا آخر، ولئن كانت حركات العرائس هي سبيلي لاستشفاف حركات الأصابع الخفية فيتبدى لي مؤنس وهو يحاول دائماً أن يخط تجربته الشخصية وينقل لنا جوانية الشخوص الذين نحتهم في اهاب من الفن يجعل هذه السيرة الحية سيرة جيل واعترافات أمة وأوجاع وطن يمتد امتداد لسان العرب، ويتكثف كثافة مد اللسان الصغير في مواجهة العالم الكبير».

وعن اعترافاته أشار غرايبة إلى أن الرزاز قال له ذات مقابلة معه نشرها بعد رحيله في «الرأي»:

أشعر منذ فترة بنداء داخلي يقول لي: «اكتب سيرة جوانية»، وأنت تعلم أن السيرة الذاتية بمعنى الاعترافات، غير موجودة في الأدب العربي المعاصر. ربما باستثناء حالة محمد شكري من المغرب.

يتطلب هذا النداء مني أن أفضح الحجاب الذي يجلل حقيقة حياتنا في الوطن العربي. هذا مشروع يتطلب جرأة عالية، وشجاعة أدبية لا تعرف التردد، وصدقا مع الذات أولا. لهذا ولربما لأول مرة، سوف أكتب عن دور النساء مثلا في حياتي، وكيف كان من حقي أن أكشف حقائق تتعلق بي شخصيا، فليس من حقي أن أكشف الحقائق التي تتعلق بالطرف الآخر. لذا فإن لغة المشروع الجديد، أقرب إلى لغة النص منها إلى لغة الرواية.

هو ليس رواية .... ولكن، ولنرَ ماذا سيكون عليه الكتاب حين يكتمل المشروع.

آن للفارس أن يترجل

كما رصد غرايبة جانبا من شخصية الرزاز في رواياته وكيف أن بذور الاعترافات كانت موجودة فيها، وهنا مقاطع من المقاربة التي قدمها غرايبة، وبعض المقتطفات التي قدمها من اعترافات الرزاز في مخطوطه، إضافة إلى ملامح من سيرته الذاتية والكتابية:

«سأقتفي أثرك وصداك في إيقاع قبائل الأطياف والخيالات ذات اللهجات المتأتئة، والمفردات المصمتة، والإيماءات البليغة».

«لتخرج من بطن الحوت يا عبد الله، هذا الحوت الذي يشق الأمواج ويهوي إلى الأعماق في ظلمات متضاعفة».

(مؤنس الرزاز/ مذكرات ديناصور/ ص109/المؤسسة العربية للدراسات والنشر/1994م)

«قلت لها إن عزرائيل لا يرعبني، والموت لا يثير فزعي، فقد آن للفارس أن يترجل ... المهم .. اقصد أن ما يخيفني فعلا هو حزنها علي إذا مت ....»

(مؤنس الرزاز/فاصلة في أول السطر /ص18 /المؤسسة العربية للدراسات والنشر/1995).

إن المتتبع لروايات مؤنس يكاد يتلمس رواية واحدة ممتدة في كتب كثيرة جوهرها الاعتراف بمعنى الكشف والمكاشفة، ووسيلتها الدراما الجوانية للشخوص، وديدنها رصد المتناقضات الكامنة في التجربة المعاصرة لإنسان العصر.

ورغم انني أتناول سيرة جوانية لمؤنس و اعترافات خاصة إلا أنها لا تقرأ بمعزل عن علاقتها بالأحداث العامة والواقع المعاصر لكل الناس. ودور البطل / المعترف / صاحب السيرة الجواني / هو دور كاشف لخبايا الواقع حينا، وفاضح لارتباكه حينا آخر ومضيء لتعقيدات الحياة وتشظي معطياتها في اغلب الاحيان، تلك العلاقات الكامنة بين البطل ومعطيات الواقع نجدها علاقة مركبة بلا افتعال، متقلبة، متحركة دائما بلا استقرار، وتحتل المرأة محوراً مفصلياً داخل هذا الواقع أو في غبار هذا الاشتباك معه فنقرأ حالها كحال الدنيا: ليل ونهار.صيف وشتاء. قحط وخصب.موت وانبعاث. ولادة وموت. شهوانية جامحة وروحانية متسامية.. كل هذا مغلف بكوميديا سوداء وتراجيديا شفافة .تعالوا نستمع إلى صوت الراوي الصريح:

«هل رأيت رجلا يعيش في الروايات ؟ أصدقاؤه أبطال روايات .. عشيقاته بطلات قصص قصيرة..».

هكذا يجد القارئ نفسه موزع التركيز بين المرأة اليقين المتمثلة في روايات عدة ولبوس مختلفة وبين طرائق التمثيل.. وبين السرد المتصل الذي صنف في كتب عدة وعوالم قص معقدة مجتمعة ومتناثرة في آن واحد وبين هذا وذاك نجد اعترافات مؤنس الروائي مجزأة موشاة بالحزن كمنحوتات تبعث على الشجن، صلبة أحيانا وهشة أحيانا أخرى وقاسية غالبا عبر فضاء شاسع ممتد في الزمان والمكان، الخطوط الدقيقة للمنحوتات تشي بداخل مكتظ بالانكسارات والشظايا التي تؤشر على ضرورة الغوص في البعد السيكولوجي لهذه التماثيل ..

هنا تقصر الكتابة التقليدية عن الامساك بتسلسل منطقي لاعترافات مؤنس .. بمعنى آخر أن استجلاء صورة شاملة لشخصية المعترف ليست ممكنة، فاعترافاته هنا لا تشبه اعترافات جان جاك روسو أو اعترافات القديس اوغستين. مؤنس يعتمد التجزئة وكأنه يقوم بعملية قص وإعادة إلصاق لأجزاء الصور ليشكل نصاً سردياً حيناً وشعرياً حيناً آخر متعمدا عدم إكماله متجرئا على إظهار نقصه وربما متعمدا عدم إشباع فضول المتلقي تاركا له حرية إكمال المشهد وعلى القارئ أن يعتمد على خطة عامة في رؤية الكل من خلال التفاصيل أو إعادة ترتيب التفاصيل من خلال الكل.

يقول مؤنس في مخطوط الاعترافات:

«المرأة غموض كاذب وجمال صريح.. الأميرة شمس في سرداب.. القديسة مومس تنز فضيلة..العاقلة قبائل نساء نذرتها الأقدار لغدر الزمان.. النساء تباريح دليل عملي على عبث الدنيا».

مع كل هذا الخلط المقصود والتركيب الصعب للصور والعلاقات الذي يشير إلى عسر التواصل وارتباك إيقاع اللحظة المعاشة واختلاط الرؤى وانعكاسه على جوانية الراوي والمروي عنه والمروي له كل هذا يحيلنا مرة أخرى إلى أهمية البعد السيكولوجي في روايات مؤنس الرزاز وتجلياته في اعترافاته المخطوطة وسيرته الجوانية التي نشر بعضها في مجلة «أفكار» التي كان يترأس تحريرها من خلال العلاقة القلقة والمقلقة مع العالم التي نلمس جذورها في: «الشظايا والفسيفساء» و«عصابة الوردة الدامية» و«سلطان النوم» والأحلام المستيقظة..

ها نحن أمام كتابة ملتبسة/ جارحة وجريحة/ سهلة وصعبة / مكتظة بالاحتمالات .. تخفي عند مؤنس الرزاز نصفه الأقوى وصنوه الأمتن والأوضح في تلافيف من زوابع الواقع ورياح الوقت وقسوة الدنيا.

إن مؤنس الرزاز وهو ينتقل خطوة فخطوة عبر السرد مبتدئا بعلاقات اقل حدية واكثر شيوعا في الحياة العادية/ مكان العمل.. مكتبة اسامة.. جلسة الاصدقاء.. شلة الجمعة.. فانه سرعان ما ينتقل إلى بناءات سردية اكثر تعقيدا وعوالم نفسية اعمق بعدا وعلاقات إنسانية اكثر تشابكا واشتباكا..

هكذا نلاحظ أن كتابته لسيرته الجوانية لا تقدم استنتاجات مكتملة إلا عن طريق الإيحاء، ومقترحاته الفنية. يدق بقوة جرس إنذار بطيء ينذر أو ينبئ عن حالة عدم التوازن في الواقع عبر مستويات عدة: منها الاجتماعي والسياسي والنفسي واثر ذلك كله على علاقات الشخوص بعضها ببعض، يرافق ذلك إقرار بالتعقيد واحترام لما هو كائن في الوجود المتعين واقفاً مضطرباً لا تحده دفتا كتاب .. فتبدو الكتابة أحيانا من خلال السرد بمثابة الجرعة المضادة والضرورية لتحمل هذا الواقع المر والمتداعي والمعقد.. ويبدو تارة أخرى مثل جرعة ماء مالح لا تزيد الصادي إلا ظمأ.

إننا أمام نمط من الكتابة يحاول قنص التعقيدات والتناقضات من خلال رصد العلاقة الجوانية للبطل / الراوي / الكاتب/ مع العالم الخارجي .. تلك العلاقات الكامنة في التجربة الحياتية على كافة الاصعدة.. ان خلاصة رؤية مؤنس الرزاز للحياة والكون تتوضح تدريجيا من خلال كتاب الاعترافات/السيرة الجوانية، تتضح كستار ينزاح ببطء عن واقع مختلف عما نحب رؤيته في الواقع.

جسنا في أحوال مؤنس وتقلباته بوصفها المعادل الموضوعي لواقع عربي متناقض متعب ومتعب .. ولكن السيرة عند مؤنس عموما ليست سيرة مما ألفنا من كتابة السير الذاتية التي تجمل القبيح وتتستر على العثرات بل هي سيرة لا يمكن أن تتضح بلا استكشاف الضفاف التي رسمت ذاك المسار. لذا بات من الضروري أن يرصد القارئ ملامح الحياة العربية والتجربة الحية للكاتب اللتين ألقيتا بظلالهما على اعترافات مؤنس التي تبدأ من حضن الأم وتنتهي بمرفأ إزرا، فنقرأ معاً عن الام :.

ـ الأم : ملجأ مضاد ودرع حيوي وملاذ اخير../الصديق الرفيق :عكاز وخوذة ومظلة / الحبيبة ليست هؤلاء: إنها البعث الذي يجعل الحياة كاملة والموت منكمشا..

ـ قلت لها إن عزرائيل لا يرعبني والموت لا يثير فزعي فقد آن للفارس أن يترجل المهم اقصد ما يخيفني هو حزنها علي إذا مت.

ـ أكدت لها أن موتي ينبغي أن لا يحزنها .. أجهشت وقالت: إن اصعب محنة تواجهها امرأة تكمن في موت ولدها وهي حية.

ـ لمعة: ما تبقى لي من صخرة اسند إليها لهاثي.

وننتهي مع ازرا

ـ ازرا تعالي .. حرريني سواء كنت مسافرا في طريق طويلة لا ينتهي طولها وعسيرة ولا ينتهي عسرها أو كنت متنقلا محلقا بين برزخ المسرة ونهج البهجة.

ـ ازرا هل تقبليني كما أنا بكل جروحي الرشيقة بكامل قيافة عيوبي وخطاياي الأنيقة هل تتفهمين سيرتي ومسيرتي من رائحة أمي حتى مرفأ جيدك الباسق؟؟

ـ ازرا احفري حفرة صغيرة ودعينا ننام معا جنبا إلى جنب نوم طفلين معا!

ـ ازرا فراشي بارد فاقدحي في ثناياه شرارة صقيعك .. اختاريني متى شئت ..ازرا تعجلي يا خيار الحتم.

(من السيرة الجوانية/مخطوط / مما نشر في مجلة افكار عدد ايلول (سبتمبر) 2001م/الصفحة الاخيرة).

وهكذا نلاحظ ان العلاقات الكامنة بين الروائي والواقع في الاعترافات هي علاقة مركبة بلا افتعال، متقلبة بلا هدف سهل المنال، متحركة دائما بلا افق صاف من الغيوم، يصوغ ذلك بعبارات مثل التواقيع تصلح أن تصير مثلاً سائراً أو حكمة راسخة.

ونقرأ مؤنس يصعد بنا إلى علياء (الحياة) بعنفوانها وألقها، أو يهبط بنا إلى (الدنيا الدنية) بتناوب رشيق يعطي السرد حيويته المبتغاة ويعطي المضمون عمقه الانساني.. ثم يلقي بنا في بركة من الألوان الصاخبة والأمواج المضطربة اسمها اعترافات جوهرها ضارب الجذور في ارض الواقع، ووسيلتها الدراما الجوانية للشخوص، وديدنها رصد المتناقضات الكامنة في التجربة المعاصرة لإنسان العصر.

لا يمكن اكتشاف مؤنس عبر اعترافاته فهو يقود إلى طرق وعرة المسالك، تعيد إلينا وحدة التجربة المعاشة كما خبرها الراوي في تجربته الخاصة بعد أن اكسب التجربة بعدا دراميا مستفيدا من عبثية النتائج دون أن يتبناها مراوحا بين كوميديا سوداء وتراجيديا ساخرة .. مباعدا بين النص والمتلقي بعدا مقصوداً ومدروسا..

لا يسمح لأحد بان يتماهى مع النص أو يتمرى بالشخصيات وبنفس الوقت يكسر البعد العاطفي بين نصه والقارئ.

إنها صور غنية للحياة وليست صورة واحدة، بل هي صورٌ لا نهائية مرفوعة إلى فضاء الفن بجدارة بحيث يمكن قراءة عناصرها ومكوناتها بطرق شتى في آن واحد.

السيرة الذاتية للرزّاز:

ولد مؤنس «احمد منيف» سليم الرزاز عام 1951 في مستشفى السلط ونشأ في عمان. هاجر جده لأبيه من سورية إلى عمان عام 1926 بعد تعرضه إلى مضايقات شديدة من السلطات الفرنسية المستعمرة، جراء دعمه للثورة السورية والتي انفجرت عام 1925. وكان عمر والده «احمد منيف» الرزاز المعروف باسم منيف الرزاز سبعة أعوام، وعاش منيف الرزاز في الأردن منذ ذلك التاريخ.

نشأ مؤنس منيف الرزاز في أسرة قومية عربية ومحيط وحدوي، إذ كان والده الطبيب منيف الرزاز قياديا بارزا في حزب البعث منذ مطلع الخمسينيات، أما والدته فهي لمعة بسيسو، وكان والدها قد جاء من فلسطين إلى الأردن عام 1922 وعمل في السلك القضائي بعد أن درس القانون في أسطنبول، وتعد «أم مؤنس» من أوائل السيدات الأردنيات اللواتي درسن في الجامعات ، فقد تخرجت في الجامعة الأمريكية في بيروت وتخصصت في الأدب الإنكليزي.

نشأ مؤنس في ظل جناح هام من أجنحة الحركة القومية وهو حزب البعث العربي الاشتراكي الذي حكم قطرين عربيين هما سورية والعراق وهكذا فقد عاش مع أسرته تجربة المعارضة والاضطهاد من جهة، والسلطة وامتيازاتها من جهة أخرى.

درس مؤنس في مدرسة «المطران» في عمان، وحصل على الثانوية العامة من مصر، ثم درس في بريطانيا لمدة عام ونصف العام، ثم انتقل إلى بيروت، ودرس الفلسفة في جامعة بيروت العربية لمدة ثلاثة أعوام، ثم انتقل إلى جامعة بغداد بعد اندلاع الحرب الأهلية في بيروت. وأكمل دراسة الفلسفة في بغداد، وتخرج في جامعتها حاملا شهادة ليسانس فلسفة، ثم انضم إلى جامعة جورج تاون في واشنطن لاستكمال دراساته العليا، إلا أنه ترك الدراسة بعد عام واحد سنة 1978 و التحق بأسرته التي انتقلت من عمان إلى بغداد، كان لدراسة مؤنس في مدرسة «المطران»، ثم بريطانيا ثم أمريكا أثر على إتقانه اللغة الإنكليزية، بالإضافة إلى اهتمام أمه بالآداب الأجنبية لذا فقد اتسع افق ثقافته واطلاعه على الآداب الأجنبية و ساعده ذلك في تلمس أبعاد الحياة بشموليتها.

وفي بغداد عمل مؤنس كاتباً في صحيفة الثورة العراقية، وسافر إلى بيروت لحضور مؤتمر شبابي أردني (عقد في لبنان قرب عاليه) وأثناء ذلك جاءه نبأ وضع والده تحت الإقامة الجبرية، فظل مؤنس في بيروت، وعمل في مجلة شؤون فلسطينية ، ونشر عدة قصص في صحيفتي «السفير» و«النهار»، ثم غادر بيروت إلى عمان، وكان في هذه الأثناء قد تزوج من ابنة خاله «قسمت بسيسو» ورزق بابنه الأول منيف عام 1982 وفي عمان عمل مؤنس في مجلة الأفق، ثم في مكتبة أمانة العاصمة، ثم كاتب عمود رئيسي في جريدة الدستور، ثم انتقل إلى الكتابة في صحيفة «الرأي» و العمل مستشارا في وزارة الثقافة الأردنية، ورئيس تحرير مجلة «أفكار» حتى وفاته رحمه الله، وكان أن انتخب عام 1993 أمينا للحزب العربي الديمقراطي الأردني الذي نشأ بعد الانفراج الديمقراطي في الأردن عام 1989 لكنه استقال من موقعه هذا في أواخر 1994. وانتخب في ذلك العام رئيسا لرابطة الكتاب الأردنيين إلا أنه استقال قبل نهاية ولايته أيضاً فصار اخلاصه لفنه وولاؤه للأدب فوق كل اعتبار، من رواياته: «احياء في البحر الميت»، «اعترافات كاتم صوت» و«متاهة الأعراب في ناطحات السراب»، «قبعتان لرأس واحد»، «سلطان النوم وزرقاء اليمامة»، «ليلة عسل» وغيرها.

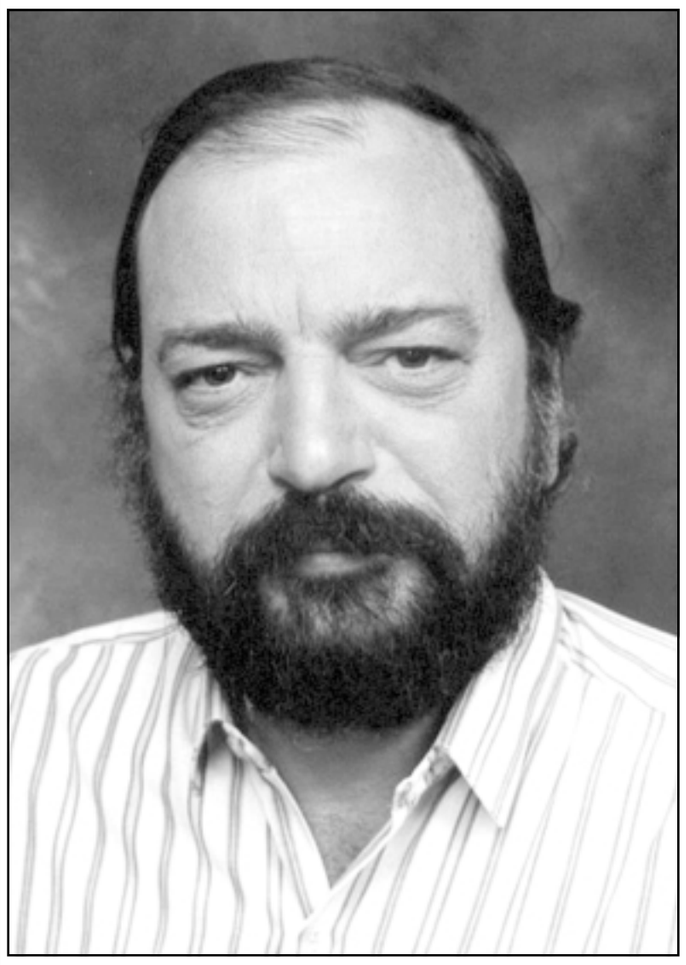

مؤنس الرزاز (القدس العربي)

قليل من كثير عن الحرب...

سلمان ناطور*

حيفا المقصوفة..

■ ابتسمت عندما سألني صديقي الكاتب الفلسطيني زياد خدّاش: «كيف تكتب في حيفا المقصوفة؟». ضحكت لكلمة «المقصوفة» لأنني لم أكن أتصور يوما بجدية أن تكون حيفا مقصوفة، أو أن نصفها بهذا النعت إلا للدلع كما ننعت أحيانا فتاة ندللها: مقصوفة الرقبة. حيفا قد تكون «مقصوفة الرقبة» لولا أنها فقدت في ليلة واحدة اثنين من قلبها، وادي النسناس، وقصفت رقبة عمارة «الاتحاد» والجدران والأعمدة وحتى الشرفة التي كنا نطل منها على البحر في ظهيرات الأيام الحارة والرطبة.

ما أصاب «الاتحاد» لا يحزن أكثر مما أصاب عائلتي الجيران أبي ادوار وحنا حمام، ولا ما أصاب بيروت وصيدا والنبطية، لا من هدم ولا من قتل، ولكن في هذه الإصابة الكثير من عبثية هذه الحرب لأنها ليست ككل الحروب، وإذا كانت جدتي تقول لإقناعنا بوجود الله أنه قادر على أن ينصر الستة على الستين وكنا نسخر منها فإنني اليوم أشعر بعد ربع قرن على وفاتها أنني مدين لها بالاعتذار، ثم من عبثيات هذه الحرب أن يصيب الصاروخ اللبناني الوطني عمارة «الاتحاد» الفلسطينية الوطنية في حرب من نوع آخر ليست الحصيلة فيها عدد الجثث فقط بل مسح (بمعنى تسجيل) البيوت الممسوحة (بمعنى المهدومة عن بكرة أبيها)، يبدو لي أن إسرائيل وجهت هذه الحرب لتثبت أن المنتصر هو الطرف الذي سيتفوق في هدم العمارات، فهي بالطبع تملك الآلة الأقوى على التدمير والهدم، وعليه فستكون إسرائيل انتصرت في هذه الحرب لأنها دمرت أكثر من مائة ألف بيت وعمارة منها ما كان للسكن أو مؤسسة ومركزا ثقافيا وملجأ أطفال ومدرسة ومطارا ومائة جسر ومحطة اذاعة وتلفزيون وأصابت مستشفى في صيدا واقتحمت مستشفى في بعلبك والصحيح أنها لم تهدمه لأنه كان فارغا، فكل اللبنانيين الذين كانوا يأتون إلى المستشفى مرتين في الأسبوع لتكرير الدم (الديناليزا) نقلوا إلى مكان آخر، وهذا كما يبدو خيب آمال «قوة الانزال الإسرائيلية» وبعد التفتيش المسلح في غرف العمليات أغلقوا البوابة بحنق وعادوا إلى المروحيات خائبين، وفي الطريق قصفوا هوائيات خليوية أو عمارة في بنت جبيل، المهم ألا تعود الطائرات دون قصف.

خياله الشرقي...

ومن عبثية هذه الحرب هو أهم كذبة قيلت بين الأكاذيب الكبيرة التي انتشرت في إسرائيل مثل انتشار القنابل العنقودية في الضاحية الجنوبية من بيروت، إنها كذبة أطلقها وزير هذا العسكر الجبار عمير بيرتس في الكنيست في خطابه الحربي الأول، قال إن جنديا يقاتل في غزة حدثه أنه وقف وجها لوجه أمام «مخرب» فلسطيني وكان هذا الفلسطيني يحمل الآر بي جي بيد وطفلا باليد الأخرى، وقد وقف الجندي حائرا أمام هذا المشهد: هل يطلق النار عليه؟ تساءل بيرتس أمام الكنيست، باعجاب ومعنويات عالية وابتسامة كاريكاتيرية، ثم أجاب: «لم يطلق الجندي الرصاص لكي لا يقتل الطفل. نحن جيش أخلاقي». تحدث الإسرائيليون كثيرا عن سذاجة وغباء وجهل هذا الوزير (كان البعض يدافع عنه ويتهم مهاجميه الأشكناز بالعنصرية) ولكن أن يصل به الغباء إلى هذا الحد فهذا يثير القلق، فلا حاجة لأن يكون الإنسان خبيرا عسكريا لكي يعرف أن الآر بي جي لا تحمل باليد بل على الكتف، ثم لماذا كان يحمل السلاح بيد والطفل باليد الأخرى؟ لكي لا يطلق عليه الجندي الرصاص؟ لو كانت هذه حساباته لما خرج إلى المعركة، أو هل يجوز أن الوزير عمير بيرتس يريد أن يقول إن المقاتلين الفلسطينيين يحتمون بالأطفال ولذلك يقتل الأطفال الفلسطينيون بهذه الكثرة. هذا الادعاء قد يكون مقنعا لو أن الأطفال الفلسطينيين يقتلون بالرصاص ولكن الأطفال الفلسطينيين يقتلون بالقنابل والصواريخ التي تزن حوالي ألف كيلو فمن يحتمي بهم، وكيف يمكن لطفل في الخامسة أن يكون سترة واقية أمام صاروخ كهذا؟ «تختنها يا عمير بيرتس، شرقي شرقي ولكن في الشرق من يحكي قصة خيالية هو المبدع وليس الأهبل. لا بد أنك تعلمت من أمك المغربية ماذا يعني الخيال الشرقي، حيّك في غير هالمسلّة، أو ابحث عن أسلوب آخر للتهريج!».

نعود إلى حيفا...

في وادي النسناس نشرت مؤسسة بيت الكرمة أعمالا فنية واقتباسات أدبية لمبدعين من العرب واليهود على شرف ما يسمى اعتباطا «عيد الأعياد والتعايش اليهودي العربي»، وعندما سقط الصاروخ حاول الإسرائيليون في وسائل الإعلام أن يقولوا إن حزب الله قد ضرب «التعايش» في حيفا. الصاروخ لم يضرب التعايش لأنه لم يكن قائما بل فضح كذبة التعايش التي روّج لها بيت الكرمة، فكم من فنان وأديب إسرائيلي يقول امسحوا لبنان (اقرأوا نص ايلان شينفلد الذي كان يعتبر من أبرز الأصوات ضد الحرب في لبنان عام 1982) وأين الأصوات التي تحدثت عن الأخلاق في هذه النصوص والأعمال الفنية؟

إذا كانت نتيجة هذه الحرب تطوير القدرة على التمييز بين ما هو حقيقي وبين ما هو مزيف، بين من يكذب ومن يقول الصدق، بين من هو أخلاقي حقا ومن فقد كل المعايير الأخلاقية، بين ما هو خالد وما هو زائل، فلن تذهب أرواح الضحايا هباء ولا عمارة «الاتحاد».

هذا قليل من كثير سوف يحكى عن الحرب.

* كاتب من فلسطين

حروب صغيرة

محمد صبيح*

■ عندما كانت قشرة الدماغ كورق السيلوفان
والعشر اصابع في رقة ورق الكراريس
والعينان زيتونتين في صحن الوجه
وقبعة الوهم والحلم تخفي جمجمتي الصغيرة
..
وقتذاك كنت مولعا بلعبة الحرب الصغيرة
في ساحة صغيرة
في لعبة صغيرة
من فكرة صغيرة تندلع الحرب ال ص غ ي ر ة
تنشب بسهولة دلق الماء والفضلات في وجه
الطرقات حربنا ال صغيرة
اطرافها ايضا صغار..
وعلى جانب كل متراس صنعناه من الطين
والرمل ووسائد الإسمنت وتنك المعلبات كنا
ننصب فوهاتنا الصغيرة..
بالإضافة للحلوى واقراص السبانخ ومجلات
«البرق» والـ«سوبرمان»
لا أذكر اني كنت مولعا بشيء يضاهي لعبة تلك
الحرب الصغيرة
لاحقا اصبحت علماً وخبيرا في صنع
الرشاشات من الخشب المسروق من بنايات
تقضم ساحة حربنا .. ومسامير صدئة ..
تطرقع منتشية واياديناً تفلتها على المطاط
المسروق ايضا من مخلفات الثياب ولا سيما
الكلاسين الشعبية والمصنوعة يدويا في حرب
التحرير المندلعة في المعارك اليومية ..آنذاك!

حرب صغيرة
كنا نتفق عليها مسبقا
موعدها ووقتها
زمكانها ..
وعدد المغاوير المسموح لهم في خوضها
سماؤها .. وارضها
وحتى اسبابها
تارة بين العرب واليهود وتارة بين الأمريكان
والألمان واحيانا بين المؤمنين والكفار ولما
تقدمت بنا نشرات الأخبار صرنا نلعبها بين
انفسنا !!
حرب نتفق على كل شيء فيها
وحتى عدد قتلاها والمنتصر فيها
«الا اذا رفض احدهم اخذ دور اليهود» في
الجانب الآخر من المتراس حينها يضطر احد
الشجعان وغالبا ماكنت انا ان اخذ دوره في
«جيش الدفاع»
وليس المهم من هُزم او من انتصر
المهم هو استمرار اللعبة ال ح ر ب
.....
.....
احد ما يحمل انبوبا على هيئة «بازوكا» يقفز
فوق الدشمة يجلس القرفصاء يثني بليونة
«ناديا كومانتشي» طيبة الذكر ركبته ويطلق
نحونا قذيفته
القي نفسي على التراب واهوي مضرجا
بخيالاتي
وقبل نزع الروح انزع مبتهجاً مسمارال قنبلة
ال يدوية
طرت من الفرحة انا وبرج الدبابة»
انها الحرب لا بد لها من خسائر تمزق البنطال
امتلأت بالبقع الطينيية جرزة الصوف .. وجرح
سطحي في الجبين وما هم ان نموت في وهج
المعارك «أنا إن سقطت على التراب وغالني ناب
الردى
وتعفر الهام الأبي وداس جثماني العدى»
تقدموا ايها الرفاق .. تقدموا
ط ططططططط «ولعت»
احد المغاوير توقف محتجا «فريق جيش الدفاع
يصرخ الله اكبر» .. نوقف وقف اطلاق النار
ونضحك بهستيريا غطت على اصوات
رصاصات «الدوشكا»
احدهم يعلن انسحابه من الحرب يريد ان يبول
في ساحة المعركة ...
اعلن ممتعضا «خربت اللعبة»
خرق امني في الساحة بعض العناصر غير
المضبوطة لا زالت ترمي قنابل التراب
البلاستيكية علينا والأمهات خرجن يولولن على
المقاتلين ..
اوقفوا هذه اللعبة
هكذا ببساطة توقف الأمهات الخائفات اللعبة
وهكذا قبل الظهيرة
انتهت جولة حربنا
ال ص غ ي ر ة !
.....
.....
..
لم يعد الآن في الساحة من يلعب تلك اللعبة
ربما نضج الصغار على نار التهدئة
ربما لم تعد نشوة البنادق والمعارك والدخان
المموه بالأناشيد والأوهام تعني لصغار القرن
الواحد والعشرين شيئا
او لعلها غزوة ثقافية الغت غزوات الساحة في
جيل ال خلويات وال حواسيب
والكنغ برغر وكوادرالبلاي ستيشن الثورية
لم تعد الحرب اذا لعبة للصغار
اظنني اكتشفت وربما متأخرا ايضا انها ليست
لعبة
وكل ما اعرفه الآن اني لم اعد احب تلك الغانية
الدامية
ولا اريد اللعب فيها حتى
لو كان ثمنها مزقة في
بنطال رخيص
او بقعة طين في
ياقة القميص!!!

حروب صغيرة كل ما فيها
صغير
الرصاصة والقذيفةُ
والكف الطرية
عصفور الحائط والنملة يحطمها
جيش سليمان
وكوب الشاي والكتب المدرسية
ثقوب الأرض نوافذ البيوت في
القرى
موجز الأنباء وفوهة
البندقية
مجلس الأمن بيانات الناطق
العسكري
ومسحة الحزن المتقنة على
وجه وزيرة الخارجية.
الكبار يلعبون الآن لعبة الحرب بعد أن ملّها
الصغار
واللعبة لا تتوقف
الأمهات يولولن لإيقاف اللعبة في الساحة اياها
و اللعبة لا تتوقف ...
امتلأت الساحة بالجثث الصغيرة
والشعوب الصغيرة
والدول الصغيرة
واللعبة لا تتوقف!
الآن وبعد ربع قرنٍ على نهاية
لعبتنا ..
اصرخ في الجوف العميق
وانفث غضبي
يا رحم الأرض الموبوءة
بالموت وبالغثيانات
ويا ساحة الحرب اللعبة
القذرة ال حقيرة
ا ك ر ه كي
اكرهكم..
اكره نفسي
اكره كل من يخطو على صفيح
هذا الكوكب العجوز
كم اكرهكم
وكم اكره الحروب
ال صغيرة !!!

* شاعر من الاردن